عود إلى التفاؤل والتشاؤم

للأستاذ عبد الرحمن شكرى

قلت إن الشاعر أو الناثر لا يُحكمُ عليه ولا يقال إنه متفائل أو متشائم بما يقوله فى حالات نفسه العارضة المتغيرة ، لأن كل نفس تفيض بالسرور والأمل تارة ، وتنقبض بالحزن تارة ، والنفس التى لا تستطيع إلا السرور فى موطن الحزن إنما هى كالأبله الذى لا يستطيع إلا الضحك ، وحالة هذا ليست فضيلة ولا قوة. وقد يتاجر بعض تجار الأدب باسم التفاؤل ، وإنما تفاؤلهم سلعة مغشوشة وعملة زائفة يريدون أن يربحوا بها الحمد والثناء ، وأن يغروا بها الناس ؛ وهذا التفاؤل أيضاً ليس فضيلة فى النفس ، بل هو نقيض الفضيلة ، وإنما يُحكمُ على القائل بما يقوله فى وصف أمله فى الحياة ، وحثه إلى المُثُل العليا ، وما يقوله فى تمجيد جهود الناس فيها كما فى قصيدة : (أبناء الشمال) أو (شهداء الإنسانية) أو (إلى المجهول) أو (الباحث) أو (قوة الفكر) أو (العصر الذهبى) أو (الحق والحسن) أو (النشوء والارتقاء) .

ويُحكمُ عليه أيضاً حكماً صادقاً إذا نظر الناقد فيما قاله القائل فى وصف محاسن الحياة والأرض والكون ؛ فإذا استطاع أن يُجمِّلَ الحياة بقدرة فنه على وصف آيات الكون والطبيعة ، لم يستطع الناقد أن يقول إن التشاؤم غالب عليه ، ولا أدرى كيف يستطيع ناقد أن يقول هذا القول إذا قرأ لى وصف محاسن (الصحراء) ... حتى الصحراء تجد فيها النفس ، وفى مظاهرها المختلفة محاسن ... وقصيدة : (البحر) . وقد نشرت فى الرسالة أيضاً وفيها وصف تلون البحر وتغير مناظره ووصف جزره :

ومن جزرٍ مثل الجنان مضيئة كأن جهلتها الصائلات الدوائر

ووصف (عيون الندى) :

فليس عيون الغيد أشعلها الصبى بأحسن فى لألائها حين تعطف

ووصف الربيع فى قصيدة (الفصول) :

أهواكِ يا روح الربيع فهيّئى جسماً لحسنكِ فى لألائه

ووصف النهر المترقرق فى قصيدة (على بحر مويس) :

فهدّمَهُ فى صيغه لؤلؤاً لو أنّ اللؤلؤ سيلا يسيل

ووصف مناظر الغابة وأسرارها التى تحكى جميع شجون النفس فى قصيدة : (الغابة) . أما وصف : (شريعة الغابة) من فتك فى آخر القصيدة ، فهذا ليس من التشاؤم . بل هو تحليل لصفات النفوس يدل عليه تقاتل الآحاد والأمم فى العالم ، ويعترف بصدقه كل إنسان ما عدا الإنسان الذى لا يستطيع إلا الضحك دائماً ، وما عدا الإنسان الذى يتخذ الباطل فى وصف النفس تجارة ربح ويسميها التفاؤل . ووصف مظاهر الضوء ومباهجه وتحاسته فى قصيدة : (الضوء) دليل آخر على التفاؤل الصحيح غير المزيف :

أو مثل فجر الآمال إنّ لها فجراً وليلاً يُضاء بالذكرِ
كأنك أنتَ سُلّمٌ لِعلا النفس تسمو لآية العُمر
تُخالُ من رقة الرامم مه نى لا يراه البصير بالبصر

والساخر الذى يستطيع بالرغم من سخره أن يقول كما قلت فى قصيدة (سؤر العيش) :

والسخر مرآةُ إبليس التى نصبت إن تُبصر الحق فيها عاد كذّابا

فيجعل السخر مرآة الباطل ومرآة إبليس فى بعض الأحايين لا يكون التشاؤم غالباً عليه ، والذى يستطيع أن يصف سحر : (ضحكات الأطفال) كما استطعت فى قلبه نور الأمل لأن الأطفال هم أمل الحياة :

ضحكة منك صوتها صوت تغريـ ـد العصافير تستفز القلوبا
ضحكة ردت الشيب شبابا وأماتت من الوجوه الشحوبا
ضحكات كأنها كلمات الـ ـله تمحو مآثماً وذنوبا

إلى آخر القصيدة . وقد قلت فى وصف أثر مظاهر الجمال فى قصيدة (قبس الحسن) :

يا شمس حسن حياتنا ثمرٌ ينضج فى ضوء حسنك الثمر

على أن الحسن فى الأحياء والأشياء خلق ورمز ومعنى واصطلاح تخلقه النفوس . ومن أجل ذلك كانت سعادة المرء فى نفسه كما قلت فى قصيدة : (طائر السعادة) :

ومن لم يجد فى نفسه ذخر عيشه فليس له بين الأنام نصير

وكره الإنسان للعيش هو من حبه للعيش كما فى هذه القصيدة أيضاً :

قل للعيش حب العيش قد شط رغده
كما يُبغضُ الهجور وهو أسير
كن يبغض الحسناء يقل ولاؤها وفى الصدر منه لوعة وزفير

وقلت فى وصف أثر النفس فى النفس فى قصيدة : (النعمان ويوم بؤسه) وكيف أن الوفاء فى أحد الناس جعله يلقى يوم بؤسه ويقول:

ألا عللانى يا خليلىّ أنما
على العيش بالإحسان والصدق والندى

وأعترف حتى فى قصيدة : (ثورة النفس) بما فى النفس البشرية من حسن :

تريدين أن الجسم يغدو كأنما ... يغنى به منك الضياء المحجب

وفى جمال فجر النهار وفجر العمر من قصيدة (فجر الشباب) :

وكان للفجر قلب خافق أبداً ... من الحياة ووجه كله لطف

وفى إشادة الحياة بالجد والعمل والأمل فى قصيدة (العظيم فى قوله) :

رأيت حياة المرء فى نفع قومه ... ولاخير فى كنز إذا كان خافيا

وما نُصِبَ المصباح إلا لضوئه ... وإن كان فى أحشائه الدهن فانيا

وفى حب الشعراء للحياة من قصيدة (الشاعر وجمال الحياة) :

نحن كالنحل لا نحب من الزهـ ... ـر سوى كل غضة مطلولة

وفى وصف محاسن الأرض والطبيعة :

وكأنما نسج الإلٰه جنانها ... شرك النهى وحبالة الأهواء

وفى أشد القصائد حزناً كما فى قصيدة (بين الحياة والموت) وهى من شعر الحالات العارضة أقول فى وصف العيش :

ولكنه كالخمر تحلو لشارب ... وإن سُلِبَتْ منه النهى والسرائر

وفى النسيب اعتراف قصيدة بجمال الحياة بالرغم من مرارة تجاربها:

وأنت جميلٌ كالحياة محبَّبٌ ... وإن كنت مثل العيش مر التجارب

وفى قصيدة (حكمة التجارب) قلت فى عزاء التجارب :

خذ ينصحى فقد حييت كثيراً ... ولو أنى لم أمض عمرا طويلا

عشتُ فى كل ساعة أبد الده ... ـر وعالجت نَشْرَةً وذبولا

ورمتنى الحياة بالحلو والمـ ... ـر فطوراً رغداً وطوراً وبيلا

ورفعت الستار عن خدعة العيـ ... ـش وقهقهت وانتحبت هويلا

وحييت الحياة فى حالتيها ... وخَبَرْتُ الهبوط والتأميلا

إلى أن قلت :

ورأينا الحياة من كل وجه ... وعشقنا كالها المستحيلا

ورجعنا إلى الحقائق حتى ... لم نعد نطلب المحال بديلا

فهذا ليس من التشاؤم بل هو ما يناله المرء من حكمة الحياة وهو لم يمنع من وصف آمال الإنسانية كما فى القصائد التى ذكرت فى أول المقال . وقصيدة (الحسن مرآة الطبيعة) على ما بها من ذكر الموت فى آخرها جمعت مظاهر الحسن ومنها :

أنت مرآة ما يجىء به الكو ... ن من الحسن بكرةً وأصيلا

فأرى فى الصباح منك ضياء ... وأرى فى المساء منك ذبولا

وأرى منك فى الخريف شبيهاً ... ثمراً يانعاً وزهراً جميلاً

وما أذكر الموت فى آخرها إلا أنه يدعو إلى محاسن الحياة والزود منها . وقد وصفت أثر تفاعل الكون والنفس فى قصيدة (الشعر والطبيعة) ومنها :

إذا غنت الأطيار فى الأيك صُدْحا ... تغنت لأشجان الفؤاد طيور

وللريح هبات وللنفس مثلها ... تُغَنِّى رُخَاءً فيهما وَدُبُور

ترى فى سماء النفس ما فى سمائنا ... ونبصر فيها البدر وهو منير

إذا كنتُ فى روض فقلبى طائر ... يُغَنِّى على أفنانه ويطير

وإن كنتُ فوق البحر فالقلب موجة ... تَرَبَّبُ فى أمواجه وتسير

وإن كنتُ فوق الشُّهْبِ فالقلب نسرها ... وللنسر فى شم الجبال وكور

وفى قصيدة (الشاعر المحتضر) يتعلل بأنه قبل موته جَمَّل الحياة بفنه :

وجَمَّلْتُ الحياة بنظم شعر ... شبيه الضوء فى الأفق الأغرّ

وقد جعلنا مثل هذا القول علالة لأن بين الأدباء من يتعلل به وإن كنا لسنا فى حاجة إلى مثل هذه العلالة ولا نأسى لضياع عمل عمر بأكمله

وفى قصيدة (خواطر الحياة) أثناء التألم أستطيع أن أقول :

والسخط غربال جاهد قصد السـ ... ـيل كأن الأذى مردود

أى أن حوادث الدهر لا تُدْفَع بالسخط والحزن كما أن السيل لا يُرَدُّ بغربال

وفى قصيدة (كعبة النفس) جعلت الرجاء من الإيمان والعبادة :

أيا كعبة الآمال ذات المحارم ... مكانك من قلبى كمحراب صائم

فلا تأخذونى بالرجاء فإنما ... رجائى إيمانُ النفوس الحوائم

وفى قصيدة (بيت اليأس) جعلت الحزن ترياقاً بقى من الحزن كما أن القليل من السم قد يبقى من السم:

كشارب السم كى يُعادِى ... مَنْ عَلَّهُ سمه صريحاً

ورددت هذا المعنى فى قصيدة (عدوى الحياة) وذكرت أن مصل الجراثيم وقاية منها :

كما يتداوى بمَصْلٍ عليـ ... ـلٌ وفى المصل من بعض ما تَبَرَه[1]

وفى (عصير الحياة) جعلت الدنها وأتعام فنونها من آلام تجاربها:

أسى على ساعات عمرى واطئا ... كالكرم يعصره الجناة فيخمر

وأحيلها نغما يروق سماعه ... وأعيدها شعراً يلذ ويُسْكِرُ

(١) تبره : أهلكه

وقلت إن دجن السماء مثل حزن النفس قد يكون لذة وذلك فى قصيدة (يوم مطير) فانظر كيف تستخرج النفس اللذة والأمل من الحزن والسحاب :

تقيل على القلب البهيج عبوسه ولكنه قد يسحر القلب كاربُهْ
كذلك بعض الحزن للنفس شائقا
تعاقره فى نشوة وتقاربُهْ

وهل تفاؤل أعظم من تفاؤلى فى البيت الآتى من قصيدة (عجائب الحياة):

وأبنى صلاح الكون والناس مثلما
مضى فى بناء عامل وأجير

وقد جعلت حتى تعلل المتعللين بذكر الموت مظهراً من مظاهر حب الحياة:

وما عَلَّلَتْ نفس الفتى بمَنِيَّةٍ
ستطوى هموم العيش طى الدساكر
سوى رغبةٍ فى العيش يرهب صرفه
فيعدو على البؤسى بذكرى الفوادر

والتلذذ بوصف مظاهر الأمل وأحاسيسه فى قصيدة (الكون بعد النوم) يدل على التفاؤل ومنها فى وصف الاحساس بالكون بعد النوم:

كسكوت اللهيب فوجىء بالماء يرى ويخشى من حسها أن تحييا
أو سكوت الشباب فى حُلُم الآ مال من قبل أن تعانى المنايا
أو سكوت الأم الرءوم حنانا وابنها نائم وتتقى الخطوبا
حلمت حلمها بما سوف يسعى فى مساعيه جيئة وذهوبا
من ثمار الحياة تختار أحلا ها له نعمة وسعدا وطيبا

وقد جعلت الأمل بهجة العمران فى قصيدة (الأمل):

أيا بهجة العمران لولاك لم يكن فلا شيد البانى ولو كدّ كادحُ

وهى قصيدة طويلة كلها فى مباهج الأمل ولذاته ومحاسنه، وأحاسيسه وفى قصيدة (شهداء الإنسانية) جعلت النعمة فى الحياة مستخرجة من الشقاء

وكم من نعمة لولا شقاه قديماً لم تكن إلا وبالا
فكم خير الأوائل من شقاء فنالا من شقائهمُ نوالا

وقد ذكرنا فى هذه المقالات وغيرها أسماء قصائد عديدة جداً لا هى من شعر التشاؤم، ولا من المذهب الطبيعى الإنجليزى، والشعر العربى ليس فى حاجة إلى مذاهب أو مسميات جديدة. وإذا لم يكتف حضرة الناقد الفاضل بهذه القصائد والشواهد ذكرنا له غيرها ونعتقد أنه حسن النية فى قوله، فعسى أن تكون عقيدتنا فيه صواباً. ونكرر للأستاذ الدكتور أننا طلبنا نفساً مما قدمنا من عمل، ولا يهمنا أفنى أم بقى، ولكن الذى يهمنا ألا يتخذ وسيلة للنيل منا حتى ولو كان ذلك عن حسن نية.

عبد الرحمن شكرى

سينما ستوديو مصر

تعرض ابتداء من يوم الاثنين ١٥ مايو سنة ١٩٣٩

فرقة التطوع

وهى من أعظم الدرميات الأمريكية الرائعة الصنع وأروع قصة غرامية حافلة بالأهوال والأسرار والنضال

تمثيل: روبرت مونتجمرى، فرجينا برروس، لويس ستون، آندى ديفين، شارل كوبرن، بادى أبسين، سام ليفين، وليام هنرى، هنرى هل

إنتاج متروجولدوين ماير